عبرة من التاريخ كلمات تذهب بملك آل صفرة

للمؤرخ الكبير : الشيخ عبد الوهاب النجار

استاذ التاريخ الاسلامى بكلية أصول الدين

ختام البحث

بعد أن عرضنا تلك الاحوال التى تكلمنا عنها فى الأجزاء السابقة لهذا الجزء من «المعرفة» لا يسعنا إلا أن نقول إن الجيش الذى جمعه يزيد لم يذهب إلى ساحة القتال بدافع من النفس، ولا حافز من الحمية، أو الأنفة من الضيم، ولم يكونوا متبصرين فى عملهم.

إن الانسان الذى يقاتل بجد ويخوض غمرات الموت مجتهدا، لابد أن يكون مدافعا عن مبدأ تغلغل فى أعماق النفس، وعقيدة ملكت عليه مشاعره، أو حق له قد غصب، أو غاض بالجد قد أهين وشرف قد هيض جانبه، أو دين استمات فى إعلانه ورفع شأنه؛ ولكن لاشىء من ذلك حرك الجموع التى مع يزيد؛ ولكنهم قوم رأوا أميرا مبسوط اليد يعطى باليمين وباليسار، وقد عود الظفر وعرف فيه يمن النقيبة وكرم النفس وسماحة الكف، فهم يتبعونه ابتغاء غنيمة ينالونها، أو فائدة معجلة يرجونها، ومثل هؤلاء لا يأخذون أنفسهم بالصبر على حر السلاح ، ولا يرون بضعة دراهم كافية لبذل أنفسهم فى سبيل الحصول عليها ؛ فهؤلاء إذا جد الجد لم يكن لهم هم إلا نجاة أنفسهم .

وكان يزيد بن المهلب يحس ذلك ويحسب حسابه ؛ فقد روى ابن الاثير أنه قال : لقد أحصى ديوانى مائة وعشرين ألفا، لوددت أن لى بهم من بخراسان من قومى .

من ذلك نعلم أن الروح المعنوى ـ أى الحال النفسية ـ فى جيش يزيد لم يكن قويا؛ والروح المعنوى للجيوش مدد عظيم ، وعامل من عوامل النصر، إذا فقده الجيش فقد اكبر عوامل الظفر .

التقاء الجيشين : فى اليوم الرابع عشر من شهر صفر سنة ١٠٢هـ عبى كل قائد جيشه وتهيأ للقتال ، وأمر مسلمة قائدا من جنده، يقال له الوضاح، أن يخرج ومعه السفن حتى يحرق الجسر الذى ليزيد بن المهلب، ففعل ، وكان جيشا الشام موحدى القيادة .

وتقدم يزيد إلى الميدان، فلما ابتدأ القتال ولم يشتد سطع دخان الجسر، ونظر جند يزيد اليه طاروا لا يلوون على شىء، وعلم يزيد بانهزامهم فتعجب مم انهزموا ! ولم يكن قتالا ينهزم الجندى من مثله، وحاول رد المنهزمين فأتاه منهم امثال الجبال فأعجزوه فتركهم.

عاد يزيد إلى القتال لأن مثله أكبر من أن ينهزم ؛ وكان أبطال العرب يرون القتل فخرا والانهزام عارا... قال ابن الاثير : وكان يزيد لايحدث نفسه بالفرار،ومن قبل قد أتاه يزيد ابن الحكم بن أبى العاص الثقفى وقال له :

إن بنى مروان قد باد ملكهم فان كنت لم تشعر بذلك فاشعر

فقال له يزيد : ماشعرت ؛ فقال ابن الحكم :

فعش ملكا أومت كريما فان تمت وسيفك مشهور بكفك تعذر

فقال يزيد: أما هذا فعسى.

من هذا نعلم أنه كان موطنا نفسه على إدراك الميتة الكريمة إذا مافاته النصر .

فى ذلك الوقت أخذ من كانوا يكرهون القتال يتسللون،وقد بقيت معه جماعة وهو يزدلف إلى عدوه ، فكلما مر بجماعة كشفها، وبعض الجماعات كانوا يعدلون عنه وعن أصحابه هيبة له .

***

فى ذلك الوقت العصيب جاء أبو رؤبة المرجى وقال ليزيد : ذهب الناس، فهل لك أن تنصرف إلى واسط ،فانها حصن تنزلها ويأتيك مدد أهل البصرة وأهل عمان والبحرين فى السفن وتضرب خندقا ؟ فقال له قبح الله رأيك ، إلى تقول ذا ؟ الموت أيسر على من ذلك ؛ فقال : فانى أتخوف عليك ، أما ترى حولك من جبال حديد ؟ فقال: فأنا أباليها جبال حديد كانت أم جبال نار ؟ اذهب عنا إن كنت لا تريد قتالا معنا .

أقبل يزيد لا يريد غير مسلمة حتى إذا دنا منه دعا مسلمة بفرسه يركبه ؛ ولم تلبث خيول أهل الشام أن عطفت على يزيد وعلى أصحابه فانفرجت عن يزيد قتيلا .

ذلك أن رجلا من أهل الشام يقال له القحل لما رأى يزيد مقبلا،قال:يا أهل الشام!هذا يزيد والله لأقتلنه أو يقتلنى؛ وطلب اليهم أن يحملوا معه على أصحاب يزيد فى الوقت الذى يحمل فيه على يزيد ففعلوا، وانفرج الفريقان عن يزيد وهو قتيل ؛ والقحل مثبت بآخر رمق، وقد أشار إلى يزيد وإلى نفسه كأنه يقول لهم: أنا قتلته وهو قتلنى.ولما أتى مسلمة برأسه سيره إلى يزيد ابن عبد الملك .

كان المفضل بن المهلب فى ذلك الوقت يقاتل أهل الشام ولايدرى بمقتل يزيد ولا بهزيمة من انهزم، وفى أثناء قتاله انهزم من معه من ربيعة فأخذ يقول لهم: يا معشر ربيعة! الكرة الكرة، والله ما كنتم بكشف ولا لئام،ولا لكم هذه بعادة، فلا يؤتين أهل العراق من قبلكم فدتكم نفسى .

وكأن كلماته أثرت فى ربيعة فرجعوا اليه يريدون الحملة ؛ وفى تلك اللحظة جاءه من قال له: ما تصنع ههنا وقد قتل يزيد وحبيب ومحمد وانهزم الناس منذ طويل ؟

وهنا تمت الهزيمة على جيش يزيد بن المهلب ، قال ابن الأثير فى وصف المفضل : ومضى

المفضل إلى واسط، فما كان من العرب أضرب بسيفه، ولا أحسن تعبية للحرب، ولا أغشى للناس منه. وقيل إن المفضل لم يعلم بقتل يزيد ولم يريدوا أن يعلموه ذلك خشية ان يستميت، بل قيل له إن الامير يزيد قد انحدر إلى واسط فانحدر المفضل بمن بقى من ولد المهلب. وكان المخبر له أخوه عبد الملك بن المهلب ؛ فلما علم بقتل يزيد حلف أنه لا يكلم عبد الملك أبدا ، فما كلمه حتى قتل بقنداييل ، وكانت عينه أصيبت فى الحرب ، فكان يقول: ماعذرى إذا رآنى الناس فقالوا شيخ مهزوم أعور إلا صدقنى فقتلت ؟ ثم قال:

ولاخير فى طعن الصناديد بالقنا ولافى لقاء الحرب بعد يزيد

احتياط لم ينفع وغدر مؤتمن : كأنى بيزيد بن المهلب كان يشعر بنفسية جنده من اهل البصرة وغيرهم، ويخشى على أخوته وبنيه وبنى أخوته مغبة هزيمة الجند، فاحتاط لأخوته وولده وولد اخوته احتياطا لم يقصر فيه، وإن كان لم يغن عنهم شيئاً .

ذلك أنه بعث وداع بن حميد الازدى والياً على قنداييل وبالغ فى وصيته، وكان فيما قال له: إنى سائر إلى هذا العدو ، ولو قد لقيتهم لم أبرح المعركة حتى يكون الأمر لى أو لهم ، فان ظفرت أكرمتك، وإن كانت الاخرى كنت بقنداييل حتى يقدم عليك أهل بيتى فيتحصنوا بها حتى يأخذوا أمانا ، وقد اخترتك لهم من بين قومى ، فكن عند حسن ظنى بك . وأخذ عليه العهود والمواثيق ليناصحن أهل بيته إن هم لجأوا اليه .

ندع وداعا بقنداييل ونعود إلى المفضل وآل المهلب ، فنراهم قد اجتمعوا بالبصرة وحملوا عيالاتهم واموالهم فى السفن البحرية، حتى إذا كانوا بحيال كرمان خرجوا من سفنهم وحملوا عيالاتهم واموالهم على الدواب ، وكان المقدم عليهم المفضل بن المهلب .

أما مسلمة بن عبد الملك فأرسل مدرك بن ضب الكلبى فى طلبهم، فأدرك مدرك المفضل ومعه الفلول فى عقبه، فكانت بين الفريقين وقعة شديدة قتل فيها كثير من اصحاب المفضل ، وطلب بعض الفالة ، الذين معه، الأمان فأمنوا، ومضى المفضل بعد الموقعة يريد قنداييل، وأراد دخولها فمنعهم وداع بن حميد وقلب لهم ظهر المجن، وحال بينهم وبين قنداييل ولم يرع الامانة ولم يف بما عاهد عليه يزيد بن المهلب .

ولما جاء هلال بن أحوز التميمى فى جيش من قبل مسلمة يريد قتال المفضل وآل المهلب، رفع راية أمان، فمال إليه وداع بن حميد ومن معه، ومال إلى راية هلال بن احوز عبد الملك بن هلال الازدى، وكان على ميسرة المفضل .

رأى مروان بن المهلب تفرق الجنود عن آل المهلب فاخترط سيفه وهم نحو حرم آل المهلب والذرية، يريد أن يقتلهم خشية ان يقعوا فى يد مسلمة بن عبد الملك ، فمنعه المفضل وقال: إنا لا نخشى عليهن من هؤلاء .

عقب ذلك تقدم آل المهلب بأسيافهم وقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم ، وبعث هلال بن أحوز برؤوسهم ونسائهم وذريتهم إلى مسلمة بن عبد الملك، وفى أذن كل رأس لواحد منهم بطاقة فيها اسمه ، فبعث بهم مسلمة إلى يزيد بن عبدالملك ، فسيرهم إلى العباس بن الوليد ، وهو على حلب ، فنصب الرؤوس ؛ وأراد مسلمة أن يبيع نساء آل المهلب وذراريهم، فاشتراهم منه الجراح الحكمى بمائة الف درهم وخلى سبيلهم ، واراد مسلمة أن يقتضيه المال فقال له: إذا شئت، فلم يقبض منه شيئاً .

وإليك ثبتا بأسماء من قتلوا من آل المهلب فى هذه الحوادث، وعددهم وعدد الأسرى منهم الذين قتلهم يزيد بن عبد الملك :

الوقعة قرب الانبار

اسماء القتلى : يزيد بن المهلب . حبيب بن المهلب. محمد بن المهلب.

القتلى بقندابيل: المفضل بن المهلب . عبد الملك بن المهلب. زياد بن عبد الملك بن المهلب . مروان ابن المهلب . معاوية بن يزيد بن المهلب . المنهال بن ابى عيينة بن المهلب . عمرو بن قبيصة ابن المهلب. المغيرة بن المهلب .

وأرسل الأسرى إلى يزيد بن عبد الملك، وكانوا أحداثا فقتلهم؛ ويقول ابن جرير الطبرى: إنهم كانوا تسعة، ويقول ابن الاثير: إنهم كانوا ثلاثة عشر،وقد أورد أسماء أحد عشر شخصا منهم وهم :

المعارك بن يزيد بن المهلب . عبد الله بن يزيد بن المهلب . المغيرة بن يزيد بن المهلب . المفضل بن يزيد بن المهلب . منجاب بن يزيد بن المهلب . دريد بن المفضل بن المهلب . الحجاج بن المفضل بن المهلب . غسان بن المفضل بن المهلب . شبيب بن المفضل بن المهلب . الفضل بن المفضل بن المهلب . المفضل بن قبيصة بن المهلب .

وقد ذكر ابن الأثير أن الاسرى لما أخرجهم يزيد بن عبد الملك يريد قتلهم نظر إليهم كثير عزة الشاعر وقال :

حليم إذا مانال عاقب مجملا أشد العقاب او عفا لم يثرب
فعفوا أمير المؤمنين وحسبة فما تأته من صالح لك يكتب
أساءوا فان تصفح فانك قادر وأفضل حلم حسبة حلم مغضب

فقال يزيد : هيهات يا أبا صخر! عطفت بك الرحم ، لاسبيل إلى ذلك، إن الله أفاد نيهم بأعمالهم الخبيثة ؛ ثم أمر بهم فقتلوا وبقى غلام صغير فقال: اقتلونى فما أنا بصغير،فقال: انظروا أأنبت؟ فقال أنا أعلم بنفسى ، قد احتملت ووطئت النساء؛فأمر به يزيد فقتل .

الذين نجوا من آل المهلب : بما تقدم اصطلم جند يزيد بن عبد الملك ويزيد بن عبد الملك آل المهلب، ولم ينج منهم سوى ثلاثة نفر ، وهم : ابو عيينة بن المهلب، وعمر بن يزيد بن المهلب، وعثمان بن المفضل بن المهلب، فانهم لحقوا برتبيل إلى أن أمنوا الواحد بعد الآخر في أزمان متطاولة.

***

فرغت ساحة دولة آل مروان من آل المهلب بعد أن كانوا عمادها، وأقاموا منارها، وكانوا زينتها وبهجتها ، بادوا أحوج ما كانت الدولة إلى دفاعهم عنها واعتزازها بمكانهم .

بادوا وقد بدأ آل العباس يعملون على تقويض بنائها واجتثاثه من أصوله ، وألفوا الجمعية السرية لنشر دعوتهم في خراسان للقضاء عليها ؛ ولم يمض على هلاكهم ثلاثون سنة حتى خرت تلك الدولة صريعة : لليدين وللفم ، ولم تجد محاميا ولا مدافعا، فكان ذهاب دولة آل المهلب نذيراً بذهاب دولة آل مروان، وتلك الايام نداولها بين الناس .

وقد قال ثابت قطنة، وهو ثابت بن كعب بن جابر العتكي الازدي، المراثي الكثيرة في يزيد وآل المهلب غير مبال بسلطان بني أمية؛ فمن ذلك قوله :

ألا يا هند طال على ليلي ... وعاد قصيره ليلا تماما
كأني حين حلقت الثريا ... سقيت لعاب أسود أو سماما
أمر على حلو العيش يوم ... من الأيام شيبني غلاما
مصاب بني أبيك وغبت عنه ... فلم أشهدهمو ومضوا كراما
فلا والله لا أنسى يزيداً ... ولا القتلى التي قتلت حراما
فعلى أن أبؤ بأخيك يوماً ... يزيداً أو أبوء به هشاما
وعلى أن أقود الخيل شعثا ... شواذب ضمرا تقس الأكاما
فأصبحهن حمير من قريب ... وعكا أن أرع بها جذاما
ونسقي منه حجاً والحي كلباً ... من الذيفان أنفاساً قواما
ولولاهم وما جلبوا علينا ... لأصبح وسطنا ملكا هماما

عبد الوهاب النجار

النـــــاس

للشاعر محمد الاسمر

مضت ثلاثون عاما ما فتئت بها ... منقبا عن أخ صدق فلا أجد
ولست أياه : أنا كلنا بشر ... لا الفرع زاك ، ولا أعراقه مجد
نرمى الوحوش بما فينا، وندفعها ... عنا، وأفضل منا الذئب والاسد
وما ثياب بنى حـواء فوقهم ... إلا جلود سباع الغاب واللبد

* * *

هم المراءون والباغون مذ خلقوا ... وأدعياء التقى والعدل مذ وجدوا ؟
صحبتهم ، فأساءونى وسؤتهم ... مكر بمكر، وإن لم يعترف أحد
ليحذر الناس منى ، إننى حذر ... منهم، وحسبى أن أعلنت ما جحدوا
تضاحكوا، وحمى الاعراض بينهم ... باك ، وأحشاؤهم مما بها تقد
لا خير فى الناس ، لولا غفلة عرضت ... أودى بأكثر من صافاهم الكمد
حتى الاخلاء في الدنيا نساء بهم ... في كل يوم وحتى الاهل والولد

محمد الاسمر